

صفحة من مذكرات

الإمام محمد سلطان الحسيني آغا خان الثالث

٢ نوفمبر ١٨٧٧ - ١١ يوليو ١٩٥٧

«الإسلام، دين آبائي وأجدادي»

الموسم

توجد مطامح الإنسان الدينية في ما ندعوه اليوم، بالعلم، فأولئك الذين درسوا علم الأساطير وعلم النفس البدائي يعرفون أن السحر في مختلف أشكاله قد بدأ سلاسل فكرية متباينة في الإنسان البدائي توصل بواسطتها إلى ما بدا له تفسيرات عقلانية للظواهر الطبيعية من حوله: وقد بدا له معقولاً، إن هذه الظواهر وهذه الأحداث من مثل شروق الشمس وغروبها، وانقضاء الفصول، وتفتح البراعم ونضج الثمر، والرياح والمطر، إنما سببتها وضبطتها آلهة أو كائنات عظمى. ولقد ربط الإنسان البدائي ما بين الخبرة الدينية البدائية والتعليل العلمي البدائي بالسحر، بالعرافة، وهكذا فإن خبرات الإنسانية في عالم الشعور والحس، واجتهاده في تفسير هذه الخبرات وتنسيقها بلغة عقله قد أدت في الوقت نفسه إلى ولادة العلم والدين معاً، وظل الأثنان مرتبطين أحدهما بالآخر طوال عصور ما قبل التاريخ والعصور القديمة، وفي حياة الأباطوريات الباكرا التي لنا معرفة بها. كان من العسير فصل ما أسمح لنفسي بأن أدعوه الدين الأولي عن العلم الأولي، ذلك انهما قاما برحلتها كجدولين اثنين، يلتقيان أحياناً ويفترقان أحياناً أخرى، ولكنهما يسيلان جنباً إلى جنب.

ذلك هو أساس الفكر والثقافة اليونانية والرومانية والفلسفة الإيرانية والهندوسية القديمة قبل بدء التاريخ المسيحي، غير أن أرسطو قد قلل من هذا الأختلاط. فأحدث مراتب ومفاهيم كانت معقولة تماماً، ونثر بقايا الرهبة والغموض الدينين اللذين تبديا حتى لاقلاطون نفسه. ويسقوط الامبراطورية الرومانية وتعطل النظام المدني العظيم المحكم الذي سنده القانون والإدارة الرومانية طوال قرون عديدة، اكتنفت العصور المظلمة أوروبا، وفي القرن السابع من التاريخ المسيحي كان هناك تفتح سريع براق لقدرة الإنسانية ورغبتها في المجازفة والاكتشاف في عالمي الروح والعقل، ذلك التفتح بدأ في الجزيرة العربية، وإنما يعود منشأ وقوته الدافعة إلى جدي المعظم، النبي محمد. ونحن نعرفه الآن باسم الإسلام، ذلك الدين الذي امتد نفوذه بسرعة وقوة من الجزيرة العربية إلى افريقيا الشمالية، ومنها إلى اسبانيا.

وابن رشد، الفيلسوف المسلم العظيم، قد اثبت بوضوح الفرق الكبير بين نوعين من التجارب





الإنسانية المدركة: تجربتنا للطبيعة كما نعرفها من طريق أحاسيسنا، ومنها تأتي قدرتنا على أن نقدر وأن نحصي، (ومع تلك القدرة جميع ما جلبته من أحداث جديدة وتفسيرات جديدة) من ناحية، ومن ناحية أخرى تجربتنا الأكثر مباشرة ورسوخاً لشيء أكثر حقيقة وأقل اعتماداً على الفكر أو على عمليات العقل. ولكننا وهبناها بصورة مباشرة، وفي اعتقادي أنها التجربة الدينية، وطبيعي أنه لما كان دماغنا شيئاً مادياً، وكانت عملياته وجميع نتائج هذه العمليات مادية، فإن هذا الأساس المادي للدفاع يجب أن يعطي، في اللحظة التي نصوغ فيها الفكر أو التجربة الروحية في كلمات، تمثيلاً مادياً حتى لأسمى التجارب الروحية وأرفعها، ولكن الناس يستطيعون أن يدرسوا نظرياً التجارب المباشرة الموضوعية التي خبرها أولئك الذين ملكوا الاستنارة الروحية دونما تدخل مادي.

يقال أننا نعيش ونتحرك وكائنون في الله. ونحن كثيراً ما نجد هذا المفهوم معبراً عنه في القرآن، لابهذه الكلمات طبعاً، بل بكلمات لا تقل عنها جمالاً وأحكاماً، غير أننا عندما ندرك معنى هذا القول فإننا نكون في طور اعداد أنفسنا لهبة القدرة على الاختيار المباشر. يقول لنا الرومي وحافظ، الشاعران الفارسيان العظيمان، كل بطريقته المختلفة، أن بعض الرجال يولدون وفيها من الطاقات وامكانيات النمو الروحي بحيث يختبرون مباشرة ذلك الحب السامي الذي يهبه الاتصال المباشر بالحقيقة للروح البشرية، والحق أن حافظاً قد قال أن أناساً من مثل يسوع المسيح والمتصوفين المسلمين من أمثال منصور ويازيد وآخرين غيرهم كانوا يملكون تلك القوة الروحية للحب الأسمى، وأن أيأ منا، إذا وهبنا الروح القدس^(١) الحاضر أبداً، تلك الاستنارة، ليستطيع أن تكون له القوة التي كانت للمسيح، ولكن هذا الحب الأسمى ليس امكانية عملية بالنسبة إلى الأكثرية الساحقة من الناس، غير أن باستطاعتنا أن نعوض عن فقدانه من حياتنا بحب دنيوي إنساني لأفراد من الناس، مما يعطينا قدراً من الاستنارة يمكن التحقق به من دون وساطة الروح القدس. واولئك الذين أسعدهم الحظ بأن يعرفوا ويشعروا بهذا الحب الدنيوي الإنساني يجب أن لا يستجيبوا له إلا بالإمتنان والشكر، وأن يعتبروه نعمة وبركة، ومصدراً من مصادر الفخار، وأن أيأ من إيماناً ثابتاً بأن الاختبار الأسمى يمكن الأستعداد له، إلى درجة معينة، بالولاء المطلق في هذا العالم المادي لإنسان آخر، وهكذا فمن وجهة النظر الأكثر دنيوية، ودونما أدراك للحياة الأسمى للروح، تجعلنا الروح الدنيا والأكثر أرضية ندرك أن جميع كنوز هذه الحياة،

(١) - يجب أن ندرك أن المفهوم الإسلامي للروح القدس يختلف اختلافاً كبيراً عن فكرة الاقنوم الثالث في الثالوث.

وأن كل ما باستطاعة الشهرة والغنى والصحة أن تحققه وتجلبه ليس شيئاً مذكوراً إلى جانب السعادة التي يخلقها حب إنسان ما لإنسان آخر، هذه النعمة الكبرى باستطاعتنا أن نراها في الحياة العامة كلما تلفتنا من حولنا، بين معارفنا وأصدقائنا.

ولكن كما أن متع الحب الإنساني تفوق كل ما باستطاعة الثروة والقوة أن تحققاه للإنسان، كذلك يفوق الحب الروحي الأسمى والاستنارة الروحية التي هي ثمرة المعرفة السامية للرؤيا المباشرة للحقيقة التي هي هبة الله وبركته، كل ما باستطاعة أصدق حب إنساني وأروعها أن يعطي. من أجل تلك الهبة يجب أن نصلي دائماً.

وبعد فأنا مقتنع بأن الإنسان، عن طريق الإسلام، عن طريق المثل الأعلى لله، كما يقدمه المسلمون، يستطيع أن يتحقق بهذه الخبرة المباشرة التي ليس باستطاعة الكلمات أن توضحها ولكنها في الوقت نفسه حقائق مطلقة بالنسبة إليه، أنني لم أبحث في تجارب من هذا الطراز مع أناس من غير المسلمين، ولكن قيل لي أن من البوذيين والبراهما والمجوس والمسيحيين - وكثيراً ما سمعت القول نفسه عن اليهود، وربما باستثناء - سبينوزا - من تحققوا أيضاً بهذه الرؤيا الخفية المباشرة.

وأني لعلى يقين من أن كثيراً من المسلمين، فضلاً عن أي مقتنع من أي أنا نفسي، قد مرت بهم وببي لحظات من الاستنارة والمعرفة من نوع ليس باستطاعتنا إيصاله لأنه شيء يعطي وليس شيئاً يكتسب. لقد وجدت إلى درجة ما أن الآية القرآنية التالية، طالما أنها تحمل على معناها غير المادي، قد ساعدتني وغيري من المسلمين، ومكنتنا من الفهم. غير أنه يتعين علي أن اندركل من يقرأها بأن لايسمح لنظرة المادية الانتقادية بأن تعطي تفسيرات حرفية لشيء رمزي مجازي، أنني أناشد كل قارئ سواء كان مسلماً أو غير مسلم، أن يتقبل روح هذه الآية بكليتها:

﴿الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ (سورة النور)

من هذا القول الموجز لاعتقاداتي الشخصية انتقل إلى إعطاء القارئ عرضاً قصيراً للإسلام كما يفهم ويمارس اليوم. أن حالة الجنس البشري الحالية تعطي، باخطارها وتحدياتها جميعاً، فرصة لا لإقامة سلم مادي بين الأمم فحسب، بل ذلك السلم الإلهي الأفضل على الأرض في هذا المعنى يستطيع الإسلام أن يلعب دوره القيم البناء، وباستطاعة العالم الإسلامي أن يكون عاملاً قوياً موازناً، شرط أن يفهم فهماً حقيقياً وان يعترف بقوته الروحية والاخلاقية وتحترم.

سأحاول أن أقدم عرضاً موجزاً لأسس الإسلام، وأعني بها تلك العقائد الإسلامية التي يعتنقها السنيون والشيعة على السواء، ويعد أن أوضح، قدر استطاعتي، المعتقد الذي يربطنا جميعاً كمسلمين، فأني سأقدم عندئذ سرداً موجزاً للمذهب الشيعي والعقائد الخاصة التي تعتنقها تلك الفرقة من الشيعة التي تعرف بالاسماعيليين، والذين أنا منهم بمنزلة الأمام.

أولاً- يجب أن يكون مفهوماً أنه بالرغم من أن هذه المثل العليا الأساسية مقبولة من المسلمين

عامة، فإنه ليس هناك، ولم يكن قط، في الإسلام أي مصدر للسلطة المطلقة، ليس لدينا باباوية عامة كما لدى الروم الكاثوليك، كما أنه ليس لدينا تسع وثلاثون مادة كتلك التي تذكر الوضع المذهبي لكنيسة انكلترا، لقد كان للنبي محمد مصدران للسلطة، الأول ديني والثاني دنيوي. وبمقتضى المدرسة السنية - والسنيون يشكلون أكثرية المسلمين- فإن سلطة النبي الدينية انتهت بوفاة، ولم يعين خلفاً لسلطته الدنيوية. وبمقتضى التعاليم السنية فإن المؤمنين، أصحاب الرسول، انتخبوا أبا بكر خليفة له، ولكن أبا بكر لم يتول سوى السلطة المدنية، الدنيوية، لم يكن لأحد أن يرث السلطة الدينية، التي كانت تعتمد على الوحي الإلهي المباشر، لأن النبي محمداً والقرآن أيضاً، أعلننا أنه كان قطعاً خاتم النبيين وهكذا، يقول السنيون، فقد كان من المستحيل إنشاء سلطة مشابهة لسلطة البابوية، ولم يبق للمؤمنين إلا أن يفسروا القرآن، وسيرة الرسول وأحاديثه، لا لكي يفهموا الإسلام فحسب بل لتأمين تطوره عبر القرون، والحق أن القرآن قد جعل هذه المهمة سهلة لحسن الحظ، ذلك أنه يتضمن عدداً من الآيات التي تعلن أن الله يخاطب الإنسان بلغة المجاز والأمثال. وهكذا فإن القرآن يترك الباب مفتوحاً لجميع أنواع امكانيات التفسير بحيث لا يستطيع أي مفسر أن يتهم مفسراً آخر بأنه غير مسلم، ومن التأثيرات المباركة لهذا المبدأ الأساسي من مبادئ الإسلام والقائل بأن القرآن قابل باستمرار للتفسير المجازي أن كتابنا قد استطاع أن يرشد وينير أفكار المؤمنين، قرناً بعد قرن، وفقاً للشروط الترابط الحسي العقلي وتحدياته التي تفرضها التأثيرات الخارجية في العالم. وهو يؤدي أيضاً إلى براعظم بين المسلمين، ذلك أنه لما كان من غير الممكن وجود تفكير قطعي دائم، فإن جميع المدارس الفكرية تستطيع أن تتحد في الابتهاال إلى الله العلي القدير أن يغفر أي تفسير خاطئ للدين سببه الجهل أو سوء الفهم.

أنني لا أحاول أن أضع أمام قرائي الغربيين العقيدة الاسماعيلية التي اعتنقها، ولا العقيدة الشيعية، ولا تعاليم المدرسة الصوفية الإسلامية التي بشر بها رجال من مثل جلال الدين الرومي أو بايزيد البسطامي، ولا حتى آراء بعض المفسرين السنين المحدثين الذين، يبحثون، شأن بعض المذاهب المسيحية، عن الهداية الحرفية في القرآن كما يجدها مسيحيو هذه المذاهب في العهدين القديم والجديد، بل المجرى الأساسي المركزي للفكر السنني الذي مصدره فكرات المدرسة التي أسسها الغزالي والذي ما زال تأثيره وتعاليمه تسيل من قرن إلى قرن.

غير أننا يجب أن نسأل أنفسنا، أول الأمر، لماذا وهبت الإنسانية هذا المظهر النهائي الكامل للإرادة الإلهية، وماذا كانت أسبابها؟ أن جميع المدارس الفكرية الإسلامية تعتبر من مبادئها الأساسية أنه طيلة قرون عديدة، وقبل آلاف السنين من ظهور محمد، كان يظهر من أن إلى آخر رسل من بين أمم الأرض التي أصابت تقدماً عقلياً كافياً لفهم رسالات هؤلاء الرسل وهكذا فإن ابراهيم وموسى وعيسى وجميع أنبياء اسرائيل يعترف بهم الإسلام عموماً، والمسلمون في الحق لا يقصرون الأنبياء على اسرائيل، فهم على استعداد للأقرار بأنه قد كان في البلدان الأخرى رسل مشابهون ملهمون: غوتاما بوذا وشري كريشنا وشري رام في الهند وسقراط في اليونان، وحكماء



الصين، وعقلاء وقديسون آخرون بين شعوب ومدنيات ضاعت منا آثارها، وهكذا فإن روح الإنسان لم تترك قط دون رسول خاص ملهم من الروح التي تدعم وتشمل والتي هي الكون، واذن فأية حاجة كانت للوحي الإلهي إلى محمد؟ أن جواب الإسلام محكم وواضح، فبالرغم من قوة التوحيد اليهودي الروحية فقد احتفظ بميزتين اثنتين تجعلانه يختلف اختلافاً جوهرياً عن التوحيد الإسلامي، لقد ظل الله، بالرغم من كل شيء، إلهاً قومياً وعنصرياً لبني إسرائيل، وشخصيته مستقلة تمام الاستقلال عن مظهره الأسمى: الكون. وفي بلدان قسوة من مثل الهند والصين تعكر صفو الإيمان بأله واحد من طريق الشرك وعبادة الاوثان، وحتى من طريق المذهب الحلولي الذي كان من العسير تمييزه عن المذهب الالحدادي إلى درجة أن هذه الأديان الشعبية لم تكن تشبه إلا قليلاً ذلك الدين الذي انبثق عن الألوهية الصافية الحق، أما المسيحية فقد فقدت قوتها ومعناها في أعين المسلمين بسبب من أنها كانت تنظر إلى مؤسسها العظيم المجيد لابوصفه إنساناً بل بوصفه الرب متجسداً في الإنسان، وهكذا فقد كان هناك حاجة كلية إلى كلمة إلهية يوحي بها، إلى محمد نفسه، البشر كغيره من البشر، عن ذات الله وعلاقاته بالكون الذي أبدعه، ومتى أدرك الإنسان جوهر الوجود فلا يبقى عليه، لما كان يعرف القيمة المطلقة لروحه هو نفسه إلا الواجب الذي يقضي عليه بأن يصنع لنفسه طريقاً مباشراً يقود روحه الفردية باستمرار إلى

الروح الشاملة ويربطها بها، هذه الروح التي ليس الكون -بمقدار ما ندرکه ونحس به برؤيتنا المحدودة- إلا واحداً من مظاهرها السرمدية، وهكذا فإن مبدأ الإسلام الأساسي لا يمكن تعريفه إلا بأنه الواقعية التوحيدية وليس التوحيد، فكروا مثلاً، بالقول الذي تبدأ به كل صلاة: «الله أكبر» ماذا يعني هذا؟ الذي لاشك فيه أن الكلمة الثانية من هذا القول تشبه صفة الله بـ«القالب الأم» الذي يحوي كل شيء ويعطي الوجود للسرمدي، للفضاء، للزمن، للكون، لجميع القوى النشطة وللساكنة التي يمكن تصورهما، للحياة وللروح. لقد وصف الإمام الحسن العقيدة الإلهية الإسلامية والكونية وشبهها بالشمس وانعكاسها في حوض من الماء. أن هناك قطعاً انعكاساً أو صورة للشمس، ولكنه انعكاس تافه ليس فيه من الحقيقة إلا النزر اليسير، فما أقل واتفه الشبه بين هذه الصورة اللاحسية وبين الكرة العظيمة المتأججة وجلالها المتقد؟ أن الله هو الشمس، والكون، كما نعرفه بكامل جسامته، والزمن، بقوته، ليس أكثر من انعكاس لمطلق في مرآة الحوض. إن هناك فرقاً أساسياً بين الفكرتين اليهودية والإسلامية عن الخلق فالإسلام يقول بإن الخلق ليس عملاً فريداً في وقت معين محدود بل حدوث ازلي مستمر، وأن الله يدعم ويرى كل وجود، في كل لحظة، بمشيتته وفكره ليس شيئاً، حتى الأشياء التي تبدو لنا مطلقة تصح عن نفسها، كالفضاء والزمن، الله وحده هو الذي يشاء: فالكون موجود وجميع المظاهر شاهد على المشيئة الإلهية، اعتقد أني أوضحت بصورة كافية الفرق بين العقيدة الإسلامية التوحيدية وبين فكرات الاعتقاد بالله القائمة على العهد القديم من جهة، وبين الفكرات الحلولية والثنائية في الدين الهندي وفي الديانة المجوسية (الزرادشتية) من جهة أخرى، أما وقد عرفنا المطلق، وفهمنا الكون سلسلة لانهاية من الأحداث أرادها الله، فأنا بحاجة إلى قانون للسلوك نتمكن بواسطته من السمو بانفسنا نحو المثل الأعلى الذي يطالبنا به الله.

فلندرس أذن واجبات الإنسان، كما تفسرها الاغلبية الساحقة، بمقتضى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، أولاً، علاقة الإنسان بالله: لا رهبان ولا نساك. لا اعتراف بالخطايا، إلا إلى الله بصورة مباشرة.

إن الرجل الذي لايتزوج، والذي يرفض أن يتحمل مسؤوليات الأبوة، وإنشاء بيت وتكوين عائلة من طريق الزواج، يذم ذمماً شديداً، ليس في الإسلام انكارات متطرفة، ولا قهر للجسد لخلاص النفس، ولا إماتة للشهوات، وأهم من هذا كله ليس فيه تعذيب لاخضاع الجسد. إن الجسد البشري السليم هو المعبد الذي تتقد فيه الروح القدسية، فهو إذن جدير بالاحترام عن طريق المحافظة على نظافته وصحته. والصلاة ضرورة يومية، فهي اتصال مباشر بين الشرارة والشعلة الكونية، أما الصيام المعقول لمدة شهر واحد في كل سنة، شرط أن لا يؤدي صحة الإنسان، فهو جزء جوهرى من تدريب الجسد، من طريقه يتعلم الجسد نبذ جميع الرغبات القدرية، وأما الزنا والخمر والوشاية وسوء الظن بالجار فيعاقب عليها بصورة خاصة وصارمة. والناس جميعاً، غنيهم وفقيرهم، يجب أن يساعدوا بعضهم بعضاً مادياً وشخصياً، أن القواعد لتختلف في تفاصيلها، غير أنها جميعاً تؤكد مبدأ المساعدة

العامّة المتبادلة في الأخوة الإسلامية، وهذه الأخوة هي مطلقة تشمل الناس من جميع الألوان والجناس، الأسود والأبيض والأصفر والأسمر، فهم جميعاً أبناء آدم ويحملون في ذواتهم شرارة النور الإلهي، وعلى كل امرئ أن يسعى جهده ليتأكد من أن هذه الشرارة لا تطفأ بل تطور وتعلو إلى مستوى تلك المرافقة الإلهية الكاملة التي كانت الرؤيا التي عبر عنها النبي بكلماته الأخيرة على فراش الموت، رؤيا تلك الحال المباركة التي رآها تنتظره بوضوح، في الإسلام يؤمن المؤمنون بالعدالة الإلهية، وهم مقتنعون بأن الحل لمشكلة القضاء والقدر والإرادة الحرة إنما يوجد في التسوية القائلة بأن الله يعلم ما سيفعله الإنسان، ولكن الإنسان حر في أن يفعله أو أن لا يفعله.

والإسلام يشجب الحروب، ويوجب أن يعم السلام العالم، فالإسلام يعني السلام، سلام الله مع الإنسان وسلام الناس بعضهم مع بعض، كذلك يحرم الإسلام الربا ولكنه يشجع التجارة والزراعة الحرتين الشريفتين بجميع أشكالها، ذلك انهما يعلنان خدمة إلهية، وأن رفاهية البشرية تتوقف على استمرار هذه الأعمال المشروعة وتقويتها. ومن الناحية السياسية فإن شكل الحكم الجمهوري يبدو في نظر الإسلام أكثر الأشكال عدلاً، ذلك أنه في البلاد الإسلامية التي شهدت نمو الملكيات المطلقة مع تركيز عظيم للسلطة في داخلها ظل انتخاب الملك دائماً معادلة مية لم



تفعل سوى أنها كرست شرعية اغتصاب السلطة. وبعد الموت تأخذ العدالة الإلهية بعين الاعتبار إيمان الإنسان، وصلواته وأفعاله، فيكون الخلود والغبطة الروحية من نصيب الصالحين، وتكون جهنم مصير الكافرين حيث يهلكون آسفين على أنهم لم يعرفوا أن يكونوا أهلاً لرحمة الله.

وتذهب العقيدة الإسلامية إلى أبعد من سائر الأديان العظمى، ذلك أنها تنادي بوجود روح، ربما كانت ضئيلة ولكنها كائنة مع ذلك في حالة جنينية، في جميع الكائنات في المادة والحيوانات والاشجار وفي الفضاء نفسه. أن لكل فرد، وكل جزيء، وكل ذرة علاقتها الروحية الخاصة بروح الله العلي القدير. ولكن الرجال والنساء، لما كانوا اسماً تطوراً من غيرهم من المخلوقات، هم أكثر تقدماً إلى درجة كبرى من العدد الذي لا يحصى من المخلوقات الأخرى التي نعرفها، والإسلام يعترف بوجود الملائكة، والأرواح العظيمة التي طورت نفسها إلى اسماً مستويات الروح الإنسانية وارتفع منها، والتي هي مركز قوى منتشرة في الكون باجمعه، ومن دون أن يذهب الإسلام إلى المدى التي تذهب إليه النصرانية فإنه يعترف بوجود الأرواح الشريرة التي تسعى عن طريق احياءاتها السرية إلينا إلى أن تحولنا عن الخير، عن طريق السعادة الأبدية الذي رسمه الله بنفسه للناس جميعاً، من طريق ابراهيم ويسوع ومحمد.

وصفت حتى الآن تلك العقائد الإسلامية التي يؤمن بها المسلمون جميعاً من كل مذهب أو طائفة، وأتى الآن إلى تشعب المجاري الفكرية، فالسنيون هم أهل السنة، أو الحديث. انهم يقولون: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وأما الشيعة فيضيفون: «علي ولي الله».

ولقد مات النبي دون أن يعين خليفته من بعده، فأما المدرسة الشيعية فتقول بأنه بالرغم من أن الوحي الإلهي قد انقطع عن وفاة النبي فإن الحاجة إلى الهداية الإلهية استمرت، وأن هذه لم يكن بالامكان تركها للملايين من البشر المائتين، عرضة لنزوات العاطفة والحاجة المادية واهوائها، ويوجهها الفهم أو الفصاحة أو الرغبة المفاجنة في المنفعة المادية. وهذه الأخطاء إنما تجلت في الفترة التي تلت مباشرة وفاة نبينا الكريم، ذلك أن محمداً، كما سبق لي أن بينت، كانت بيده السلطة الزمنية والروحية، وكان من شأن الخليفة أن يخلفه في هاتين السلطتين معاً. كان ينبغي أن يكون «أمير المؤمنين» و«أمام المسلمين».

وقد بدا أن علياً، ابن عم النبي وزوج ابنته الوحيدة الباقية على قيد الحياة، فاطمة، وأول من آمن به، ورفيقه الشجاع في كثير من الحروب، والذي قال فيه النبي أنه سيكون طيلة حياته بالنسبة إليه، كما كان هارون بالنسبة إلى موسى، اخاه وساعده الأيمن الذي سيجري في ذريته دم النبي نفسه، أقول لقد بدا أن علياً كان مقدرأ له أن يكون ذلك الخليفة الحقيقي، وهكذا كان يتوقع المسلمون بصورة عامة. وأذن فإن الشيعة كانوا وما يزالون يعتقدون بأن القدرة والهداية والقيادة الإلهية، بعد وفاة النبي، اظهرت نفسها في «علي» بوصفه الإمام الأول للمسلمين، أما السنيون فيعتبرونه الخليفة الرابع.

وهكذا فإن الإمام هو خليفة النبي في صفته الدينية، أنه الرجل الذي يجب أن يطاع، والذي يقيم بين أولئك الذين له عليهم حق الطاعة الروحية، ولقد كان السنيون ومايزالون يقولون بأن هذه السلطة زمنية دنيوية فحسب، وأنها لا تمارس إلا في الناحية السياسية، وأذن فالسنيون يعتقدون بأنها تخص أي رئيس سياسي للدولة يولى بصورة مشروعة، سواء أكان حاكماً أم رئيساً لجمهورية. أما الشيعة فيقولون بأن هذه السلطة عامة وشاملة وأنها تعني أيضاً بالأمور الروحية التي انتقلت بالحق الموروث إلى خلفاء النبي من دمه.

إن أفضل وصف لهذا الذي حدث هو في الحكم الذي نطق به حضرة القاضي آرنولد في محكمة بومباي العليا يوم ١٢ تشرين الثاني ١٨٦٦، في الدعوى العظيمة التي أقيمت على جدي. «إن نفوذ عائشة، زوجة محمد الشابة المفضلة، والعدوة الحقود لفاطمة وعلي، أمن انتخاب والدها أبي بكر. وتبع أبا بكر في الخلافة عمر، ثم عثمان، ومن بعده علي في سنة ٦٥٥ ميلادية، ولكن علياً لم ينج من معارضين حتى في ذلك الحين، ذلك أن معاوية نازعه على الخلافة بمساعدة عائشة، وفي عام ٦٦٠ قتل علي بيد أحد الخوارج في جامع الكوفة، وكانت عندئذ المدينة الإسلامية الرئيسية على الضفة اليمنى أو الغربية للفرات...»

إن الحكم الذي أصدره القاضي آرنولد يقدم شرحاً مؤثراً لتأثير مقتل علي ومقتل ولديه الحسن والحسين، حفيدي الرسول الحبيبين، في حياة المسلمين وتفكيرهم، وللعداوة وسوء التفاهم المضجرين الذين تطوروا من بعد بين أتباع المذهبين الإسلاميين الرئيسيين، ولكل الخصام الذي ورثته الأجيال المتعاقبة. والشيعة أنفسهم ينقسمون إلى فروع كثيرة، بعضها يؤمن بأن هذه الزعامة الروحية، هذه الإمامة التي كانت من حق حضرة علي، انحدرت عن طريقه في الجيل السادس إلى اسماعيل الذي تحدرت منه أنا نفسي وتحدرت منه أمامتي، وبعضها يؤمن بأن الإمامة مصدرها زيد، حفيد الإمام الحسين، حفيد الرسول الذي استشهد في كربلاء، في حين أن بعضها الآخر، بما فيها أكثرية الشعب الفارسي الساحقة، والشيعة الهنود، يؤمنون بأن الإمامة يتولاها الآن إمام حي، هو الثاني عشر من بعد علي، والذي لم يمض قط، والذي هو في قيد الحياة وعاش ألفاً وثلاثمائة سنة بيننا، لا يرى ولكنه يرى كل شيء، والذين يقرون هذا المعتقد يعرفون بالاثني عشرية، والاسماعيليون أنفسهم ينقسمون إلى فريقين ويرجعون إلى الفترة التي كان فيها اسلافي يتولون خلافة مصر الفاطمية، فأما الفريق الأول فيقول بأن جدي، نزار، هو الخليفة الشرعي للخليفة المصري المستنصر، في حين يقول الفريق الآخر بأن الإمام هو ابنه الآخر الخليفة المستعلي.

ومنذ ذلك الحين وقصة الاسماعيليين اسلافي، واتباعهم تنتقل عبر تعقيدات التاريخ الإسلامي طوال العديد من القرون. ويقال أن جيبون قد اعترف بعجزه عن جلاء غوامض السلالة الآسيوية، غير أن هناك بهجة لانهاية لها في دراسة الشخصيات والأحداث التي نسجت عبر العصور، هذه الدراسة التي ترتبطنا في هذا الزمن الحاضر بجميع هذه الأمجاد والمآسي والالغاز الغابرة. أن معتقد آبائي وأجدادي، الذي كثيراً ما اضطهد وظلم لم يهدم قط، فهو أحياناً مزدهر

شأنه في عهد الخلفاء الفاطميين، وأحياناً غامض لا يحظى إلا بقليل من الفهم. بعد ضياع الخلافة الفاطمية في مصر انتقل أجدادي أول ما انتقلوا إلى مرتفعات سورية ولبنان ومن هناك ارتحلوا شرقاً إلى جبال إيران حيث أقاموا معقلاً لهم في ذروة الموت الشامخة من جبال البرز، وهي السلسلة التي تفصل بين سائر إيران والمقاطعات الكائنة إلى الجنوب من بحر قزوين مباشرة، وتتعاون الأسطورة والتاريخ هنا نسج حكاية «شيخ الجبل» الغربية، والاسياد العظام الوراثةيين لطغمة القتلة الذين احتفظوا بالموت قرابة مئتي عام. في هذه الفترة اشتهرت العقيدة الاسماعيلية في سورية والعراق والجزيرة العربية نفسها، وفي أواسط آسيا، فلقد كانت سمرقند وبخارى وغيرها من المدن مراكز عظيمة للعلوم ومذاهب الفكر الإسلامية، وبعد قليل أي في القرن الثالث للميلاد، نفذت الدعاية الإسماعيلية الدينية إلى ما يعرف بسينج يانج وتركستان الصينية، وقد جاء وقت في القرنين الثالث والرابع عشر كانت فيه العقيدة الاسماعيلية المدرسة الفكرية الشيعية الرئيسية والأكثر نفوذاً غير أنه ابتصار أسرة صفوي في إيران (في مقاطعتها الشمالية الغربية، أذربيجان، بصورة خاصة) وطدت الاثنا عشرية سلطتها، واحتفظ من بقي من الاسماعيليين بنباتهم وصمودهم على عقيدتهم ولا يزال الكثيرون منهم في أنحاء متعددة من آسيا وأفريقيا الشمالية وإيران، أن المراكز التاريخية للمذهب الاسماعيلي منتشرة في الحق في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ففي مناطق سورية الجبلية، مثلاً نجد الدرروز في معقلهم جبل الدرروز، أنهم في الحقيقة اسماعيليون لم يتبعوا أصلاً أفراد عائلتي في هجرتهم من مصر بل حافظوا على ذكرى جدي الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي في مصر، وأقاموا معتقداتهم على أسس شبيهة إلى حد ما بأسس الاسماعيليين السوريين الذي هم اتباعي في الوقت الحاضر، وهنا «جزر» اسماعيلية مماثلة في جنوبي مصر، وفي اليمن وفي العراق طبعاً، وأما مراكز الاسماعيليين في إيران فهي حول «محللات»، وغرباً نحو همدان وإلى الجنوب من طهران، كما أن هناك مراكز أخرى في خراسان إلى الشمال وإلى الشرق حول يزد، وحول كرمان وإلى الجنوب على طول شاطئ الخليج الفارسي من بندر عباس إلى حدود باكستان والسند، وإلى داخلية بلوخرستان وهناك أيضاً مراكز أخرى في أفغانستان، في كابول نفسها، والعديد منها في روسيا وأواسط آسيا، حول يارقند وكشغر وفي كثير من القرى والمستعمرات في سينج يانغ، وفي الهند اعتنقت بعض القبائل الهندوسية العقيدة الاسماعيلية على يدي مبشرين أرسلهم جدي اسلام شاه وسموا بالخوجا، وحدث مثل هذا التحول في بورما في القرن التاسع عشر.

أما وقد قدمت هذا العرض الموجز لأصل الاسماعيليين وتقلباتهم وتجولاتهم على مرأى من العالم المعاصر، فقد يكون الآن أوان تقديم سرد مفصل لحياة جدي وأفعاله، جدي الذي أول من عرف بالأغا خان، والذي برز في أضواء التاريخ في القرن الميلادي التاسع عشر. كانت حياته (كما لاحظ القاضي آرنولد) «حياة مغامرة ورومنطيقية» كان الزعيم بالوراثة لمدينة كرمان الكبيرة وصهر الملك الفارسي القوي فتح علي شاه، وكان يملك اقطاعات واسعة شاسعة، بالإضافة إلى إمامة الاسماعيليين التي انتقلت إليه بالوراثة.

وفي عام ١٨٣٨ اشترك في نزاع مع الامبراطور محمد شاه، الذي كان حاكماً عندئذ لاسباب قدمها القاضي آرنولد كمايلي: «إن حاجي ميرزا أهاسي، الذي كان من قبل مدرساً لمحمد شاه، كان طيلة حكم تلميذه الملك (من ١٨٣٥ - ١٨٤٨) رئيس وزراء فارس. وكان هناك فارسي من عائلة وضعية جداً في خدمة آغا خان، ولكنه تمكن من أن يصبح الرجل المفضل والمقدم لدى الوزير الذي كانت السلطة كلها متجمعة في يده.. وهذا الشخص قد كانت له الجرأة على أن يخطب لولده إحدى كريمات الأغاخان: حفيذة المرحوم شاهنشاه! وقد اعتبر الأغاخان هذا، كما يقول المؤرخ الفارسي، اهانة كبرى، ومع أن رئيس الوزراء قد الح عليه بالقول فقد رفض الطلب بأبء وشمم عظيمين، واذ جعل الأغاخان أقوى رجل في الدولة عدوه اللدود، فقد شعر على الأرجح بأن أفضل وسيلة لسلامته أن يقوي نفسه بالسلاح، ولم يكن هذا بالمسلك النادر بين اقطاعيي فارس التي كانت تعمها الفوضى.. وقد جعل الأغا خان من كرمان مقراً عاماً له، ولذلك يبدو أنه استمر في القتال، منتصراً حيناً ومنهزماً حيناً آخر، طوال عام ١٨٣٨ - ١٨٣٩، وجزء من عام ١٨٤٠، وفي هذه السنة الأخيرة غلبته كثرة العدد واجبر على الهرب فنجاً بصعوبة، وكان يصحبه بضعة فرسان، عبر صحارى بلوخستان إلى بلاد السند.»

وفي ابان تجولاته في السنين القليلة التالية أدى جدي للبريطانيين مساعدة جسيمة في توسعهم العسكري والامبراطوري شمالاً وغرباً من البنجاب وفي المراحل الأخيرة من الحرب الافغانية الأولى، في عامي ١٨٤١ و ١٨٤٢، أفاد هو وفرسانه الجنرال نوت في كارداهار والجنرال انجلند عندما تقدم من السند للانضمام إلى نوت، لهذه وغيرها من الخدمات التي اداها لسير تشارلز نابير في غزوه لبلاد السند عام ١٨٤٣ - ١٨٤٤ منحت الحكومة البريطانية جدي معاش تقاعد.

وفي عام ١٨٥٤ وصل جدي إلى بومباي حيث كما قال القاضي آرنولد استقبله جميع السكان الخوجا في تلك المدينة وجوارها استقبالاً ودياً وقدموا إليه ولاءهم. غير أن جدي قضى عاماً أو عامين بعد سنة ١٨٤٦ سجيناً سياسياً في كلكتا بسبب من أن محمد شاه كان قد احتج لدى الحكومة البريطانية على وجوده في ميناء قريب جداً لفارس مثل بومباي. غير أن عهد محمد شاه انتهى في عام ١٨٤٨ وعندئذ أقام جدي بسلام في بومباي حيث انشأ دارخانه أو مقره العام ولم يكن هذا قراراً شخصياً عاقلاً مفرحاً فحسب، بل لقد كان له تأثير رائع في الحياة الدينية والاجتماعية للعالم الاسماعيليين بآجمعه. لقد بدا وكان ذلك العبء الثقيل من الاضطهاد والعدوان التعصبي، الذي كان عليهم أن يتحملوه تلك السنين الطوال، قد رفع عن كواهلهم. وشرعت الوفود تأتي إلى بومباي من بلدان قسوة مثل كاشغر ويخارى وجميع أنحاء إيران وسورية واليمن والشاطئ الافريقي والاراضي الداخلية التي كانت قليلة السكان وقتئذ.

منذ ذلك الحين لم يطرأ تبدل أساسي أو عنيف على الطريقة الحياتية الاسماعيلية، أو على الظروف التي يستطيع اتباعي أن يتبعوا فيها دينهم. وفي الوقت الحاضر لا تأتي أي وفود من روسيا، ولكن الاسماعيليين في روسيا وآسيا الوسطى ليسوا مضطهدين ويحيون حياتهم الدينية

بحرية، أنهم لا يستطيعون طبعاً أن يرسلوا أموال الزكاة التي هي مجرد جزية رمزية ولم تكن قط ذلك النوع من الغرامة المالية التي زعمها بضعة أعداء متعصبين ضد الاسماعيليين.

ليس لنا اتصال بسنج يانج وكشغر ويارقند في الوقت الحاضر، ذلك أن الحدود مغلقة في وجه الاسماعيليين وغيرهم بالحزم نفسه، ولكننا نعرف أنهم أحرار في اتباع دينهم وأنهم اسماعيليون مؤمنون ثابتون، وأنهم يتمتعون بقدر كبير من الثقة بالنفس والشعور بأنهم يؤلفون أهم جالية اسماعيلية في العالم اجمع، أما ممثلوا إيران وبعثاتها فيروحوون ويجينئون، وكانوا يأتون من سورية إلى الهند بانتظام، غير أن أفراداً من عائلتي يذهبون الآن إلى سورية، أو أن اتباعي من السوريين يأتون لزيارتي في مصر، ومنذ مدة قصيرة ذهبت إلى دمشق حيث توافد عدد عظيم من اتباعي ليقدموا احتراماتهم، وفي جميع هذه البلدان تقريباً ينفق القسم الأعظم من أموال الزكاة على المدارس والمساجد وعلى إدارة مختلف المؤسسات الدينية والاجتماعية، ويسودها قدر كبير من المسؤولية المحلية، فمسائل الزواج والطلاق، مثلاً، هي بكليتها من شأن الممثل المحلي للإمام؛ وأحياناً تساعد الجاليات الغنية بين الاسماعيليين الجاليات التي هي أقل غنى من حيث المؤسسات المماثلة، إنني أصدر تعليمات وأوامر عامة، ولكن العمل الإداري واليومي والفعلي لكل جالية بذاتها إنما يقوم به ممثل الإمام والرئيس المحلي، صحيح كثيراً من هذه الرئاسات في جميع أنحاء آسيا الوسطى، مثلاً هي وراثية، ولكن ليس لدينا نظام عام ثابت، فالابن يخلف أباه أحياناً، وأحياناً يخلفه حفيده، ويُعرف الرئيس أحياناً بالوزير، أو الكامدار (وهو لقب انحل عن طريق الاستعمال إلى (كامريا) وهو أحياناً رئيس أوراى وفي سورية يعرف ممثلو الإمام بالامراء وفي بعض أنحاء آسيا الوسطى، من مثل هونزا، يستعملون كلمة الأمير في عاميتها فيقولون (مير)).

إن رئاسة الجالية الدينية المنتشرة في جزء كبير من العالم من مدينة الرأس إلى كشغر ومن سورية إلى سنغافورة لا يمكن أن ينهض بها بمقتضى ايما نظام ثابت جاف فالظروف الاخلاقية، والوسائل المادية، والمطامح الوطنية والأسس التاريخية العميقة الاختلاف يجب أن لاتغيب عن البال، كما يجب أحداث التعديلات العقلية اللازمة.

هنالك إذن تفاوت كبير ومرونة كبيرة في الإدارة، ففي المستعمرات البريطانية والبرتغالية والفرنسية في افريقيا الشرقية، وفي يوغندا، وفي آسيا الشرقية البرتغالية، وناتال ومستعمرة الرأس، يوجد نظام مجالس إدارية على جانب عظيم من الرقي والتطور، فالاداريون الثقافيون، ووكلاء الاملاك والمجالس التنفيذية والقضائية تؤدي كلها مبلغاً من العمل الإداري اليومي، وتقوم بإدارة مالية واسعة أيضاً بناء على أوامري العامة.

وفي الهند وباكستان هناك جهاز إداري مماثل، ولكنه ذو شكل أقل امكاناً وتطوراً. أما في بورما والملايو والتنظيم يشبه شهاً كبيراً تنظيم الاسماعيليين في افريقيا. وأما سورية وإيران ومقاطعة باكستان على الحدود الشمالية الغربية فهي كلها بلاد لها فرديتها الظاهرة بقوة، وأسسها وتقاليدها التاريخية، هذه التغييرات التاريخية عبر القرون، وامكان الوصول أو عدمه إلى كثير من الجاليات الأكثر انعزلاً، وتطور الاتصالات بين أسرتي واتباعي قد كان لها جميعاً تأثيرها.

إن زعامة الاسماعيليين في آسيا الوسطى هي من طريق الوراثة في يدي بعض العائلات، وتحدرت في خط مستمر عبر القرون، وهذا ينطبق أيضاً على اتباعي في الافغان، وروسيا، وتركستان الصينية، حيث مازالت بعض العائلات، منذ اعتناقها الاسلام، هي التي تتولى الإدارة وتمثيل الإمام، وتنتقل الزعامة من طريق القرابة من جيل إلى آخر، فاحياناً يكون الرئيس الوراثي، واحياناً اخرى - كما هي الحال في هونزا - يكون الملك، وهو نفسه اسماعيلي، هو الذي يدير شؤون الأخوة الدينية والمراسلات التي احتفظ بها مع جميع الجاليات الواسعة الانتشار تتأثر بالظروف المحلية ففي بغداد لي ممثلون خصوصيون يعالجون الأمور العربية، وفي إيران لي ممثلون خصوصيون في كل مقاطعة يعنون بالأمور الاسماعيلية، وعم على العموم أفراد من عائلات أمدت، كأمر وراثي، الزعماء الاسماعيليين المحليين طيلة المدة التي كان لهؤلاء القوم صلة، بأسرتي، وفي سورية احتفظت احدى هذه الأسر بصلتها بأسرتي بصورة موصولة طيلة ألف من السنين.

لقد ظلت الاسماعيلية على قيد الحياة لأنها كانت ولا تزال عقيدة مرنة، فالواقع أنه لم يكن هناك أية قواعد ثابتة قاطعة، وحتى مجموعة الانظمة المقدسة هي توجيهات تتعلق بالطريقة والاسلوب وليست أوامر منفصلة عن النتائج المتوخاة، وللاسماعيليين في بعض البلدان - من مثل الهند وأفريقيا نظام مجالس، بموجبه يعهد إلى اعضائها المحليين بجميع المسؤوليات الإدارية الداخلية على أن ينقلوا إلي ما يكونون قد فعلوه، وكما قلت سابقاً فإن الزعامة في سورية وآسيا الوسطى وإيران موكولة إلى زعماء ورؤساء وراثيين هم ممثلوا الإمام الذين يرعون مختلف الجماعات أو الجاليات.

ومن جميع أنحاء العالم الاسماعيلي التي يمكن الاتصال بها سياسياً بصورة منتظمة يتدفق سيل ثابت من المراسلات والتقارير. أن قراءة هذه المراسلات والتقارير والإجابة عنها، وتقديمي الحلول للمشاكل المعنية التي تعرض علي، وقيامي بمهامي بوصفي الإمام بالوراثة لهذه الجالية الدينية المنتشرة في جميع أصقاع الأرض هي التي تتألف منها حياتي العملية- وهكذا كانت منذ أن كنت صيباً.

والحق أن قسماً كبيراً من أعمال المجالس الاسماعيلية وممثلي الإمام هو في أيامنا هذه اجتماعي خالص، فهو يعنى بالأمور التعاقدية من مثل الزواج والطلاق.

ولربما كان يتعين علي في هذا الموضوع أن أقول أنه ليس في أيما مكان في العالم يقيم فيه الاسماعيليون اليوم أي اضطهاد لهم أو تدخل في معتقدتهم وعاداتهم إلا حيث تكون قوانين البلاد العامة مخالفة لقوانين المؤسسات، كتعدد الزوجات ولكن الملاحظ بصورة عامة أنه ليس بين الاسماعيليين من يستطيع أن يتخذ زوجة ثانية أو يطلق زوجته الأولى لثورة خاطر أو نزوة خيال أو - كما يتوهم البعض في الغرب خطأ - لحجة تافهة ملتوية، أن هناك عادة، حسب طريقتنا في التفكير، بعض الأسباب القوية لكل من هذين التصرفين، فانجاب الاطفال حاجة ورغبة طبيعية جداً في كل زيجة من الزيجات، فإذا حدث أن الحمل لم يحصل بعد سنين مديدة

من الحياة الزوجية فإن الزوجة نفسها كثيراً ما تتوق إلى أن ترى بيتها وقد اضاءه وجود الاطفال بكل ما يجلبونه معهم من المرح والأمل والسعادة، وفي حالات أخرى قد يكون هناك اختلاف عميق في الخلق بين الزوج وزوجته بحيث يرى أن الطلاق هو أفضل الحلول لسعادة الزوجين معاً، غير أن على المجالس المختلفة في كل حالة من الحالتين، سواء في حالة اتخاذ زوجة ثانية أو في حالة منح الطلاق، أو ممثلي الإمام (إذا لم يكن هناك مجالس) واجباً محتماً يقضي بصيانة مصالح الزوجة، فإذا اتخذت زوجة ثانية كان على المجالس أو الممثلين أن يتأكدوا من حصول الزوجة الأولى على التأمين المالي الكامل، ومن أن الأمر يسوى على الصعيد المالي بسخاء وبصورة مناسبة. ومن المهم أن يدرك غير المسلمين إن نظرة الإسلام إلى مؤسسة الزواج- وإلى كل ما يتصل بها من طلاق وتعدد في الزوجات وغير ذلك - هي مسألة تعاقد ليس غير، مسألة رضا ومسؤوليات معينة يتقبلها الطرفان بصورة متبادلة إن مفهوم الزواج المتصل بمفهوم الجسد السري ليس مفهوم الإسلام، واذن فليس هناك للزواج، إلا مداورة، أهمية دينية، كما أنه ليس هناك احتفال ديني يكتنف الزواج بالخشوع والرمزية اللذين يكتنفان الزواج في الأديان الأخرى، كالمسيحية والبوذية، انه يشبه تماماً في الغرب - الزواج المدني في مكتب مسجل العقود أو أمام القاضي.

غير أن بالامكان، طبعاً الدعاء والصلاة، الدعاء بالسعادة والرفاهية والصحة الحسنة، ولكنه ليس بالامكان أن يكون هناك طقوس دينية تتعدى ما ذكرنا، مما يعود في الواقع إلى الاختيار الشخصي، واذن فليس هناك في الإسلام أو عند الإسماعيليين إلا ذلك النوع من الزواج الذي يتم بناء على الرضا المتبادل. والتفهم المتبادل وكما أشرت سابقاً فإن كثيراً من عمل المجالس الاسماعيلية وممثلي الإمام في جميع الجاليات الاسماعيلية هو أن تتأكد من أن الزيجات قد جرى تسجيلها صحيحاً، وأن الطلاق، مع أنه ليس اثماً، لا ينفذ إلا بحيث لا يتسبب في الاضرار بمصالح أي من الزوجين، وبحيث يضمن للنساء أكبر قدر ممكن من الحماية، وأهم من كل ذلك بحيث يؤمن الانفاق على الأولاد الصغار.

لقد شهدت السنوات السبعون الماضية تقدماً ثابتاً مطرداً حققه الاسماعيليون حيث ما حلوا، وفي أيام الامبراطورية العثمانية، وتحت حكم عبد الحميد، عانى الاسماعيليون درجة قصوى من الاضطهاد، واذ كانوا يشكلون اقلية فقد لاقوا شأنهم شأن الأقليات المتعددة الأخرى في امبراطوريته، الضيق والمصاعب، والنزج بالكثير منهم في السجون في السنوات الأخيرة من حكمه الاستبدادي، غير أن فترة الاضطهاد هذه انتهت بقيام ثورة تركيا الفتاة، والآن، وبالرغم من جميع التنقلات والتبدلات السياسية الواسعة التي تعرض لها العالم، فأني اعتقد أن من الممكن الادعاء بصورة خالية من الغلو بأن حالة الاسماعيليين في العالم أجمع حالة مرضية، فجالياتهم حيثما قطنوا، تشكل في المجتمع عنصراً سعيداً، محترماً مجدداً، ومنتقيداً بالقانون.

ها هي سياسي ازاء اتباعي؟ ان ديننا هو ديننا، فأنت أما أن تؤمن به أو لا تؤمن، وبإستطاعتك أن تترك ديناً ما، ولكنك لا تستطيع، إذا لم تتقبل عقائده، أن تبقى ضمنه وأن تدعي «اصلاحه»

باستطاعتك أن تتخلى عن هذه العقائد، ولكنك لاتستطيع أن تحاول تبديلها وأن تقسم مع ذلك على أنك تنتمي إلى المذهب الذي يقول بها. أن كثيراً من الناس تركوا العقيدة الاسماعيلية، تماماً كما اعتنقها غيرهم عبر العصور، هناك نحو من عشرين شخصاً من أصل ملايين وهم طائفة صغيرة في كاراتشي وفي الهند ادعوا بأنهم كانوا ولكنهم دعوا أنفسهم «مصلحين» غير أن الاسماعيليين الحقيقيين نبذوهم حالاً، أن العقيدة الاسماعيلية لاتتبدل، فقد ظلت هي نفسها ويجب أن تظل هي نفسها دونما تغيير أو تبديل، أن أولئك الذين لم يؤمنوا بها قد تركوها محقين، ونحن لانحمل لهم أي حقد أو ضعينة، بل نحترمهم لصراحتهم واخلاصهم.

والارشاد السياسي؟ لقد كان من عادة أسلافي، هذه العادة التي حافظت عليها محافظة تامة، أن ينصحوا الاسماعيليين دائماً بأن يكونوا رعاياً مخلصين متفانين في الدولة - مهما كان دستورها، ملكياً أو جمهورياً- التي هم مواطنون فيها.

فلا أجدادي ولا أنا شخصياً حاولت مرة أن أضغط علي اتباعي كي يسيروا في هذه الطريق أو تلك، ولكني قلت لهم أن السلطة الشرعية في أي بلد يعيشون فيه يجب أن تحظى بولائهم التام المطلق، كذلك فلو أن أيما حكومة راجعتني وطلبت مساعدتي ومشورتي لرعاياها، فإن هذه المشورة هي دائماً - كانت مشورة أبي وجدي - أن من واجبه أن يكونوا مخلصين وأن يتقيدوا بالقانون، وإن عليهم إذا كانت لهم شكاوى سياسية أن يراجعوا حكومتهم الشرعية، باخلاص وولاء. لقد كانت جميع تعاليمي وتوجيهاتي لاتباعي تحقيقاً لهذا المبدأ: أعط مال قيصر لقيصر وما لله لله.

وأما على صعيد الاصلاح الاجتماعي فقد حاولت أن أمارس نفوذي وسلطتي بتعقل وتقدمية، ولقد توخيت دائماً أن أشجع تحرير المرأة وتثقيفها، في أيام جدي وأبي كان الاسماعيليون متقدمين على اتباع أي مذهب إسلامي آخر أشواطاً عديدة في مضمار الغاء الحجاب الصارم، حتى في البلدان المتطرفة في التحفظ، أما أنا فقد الغيت الحجاب بالكلية، فأنت لا تجد مطلقاً أي امرأة اسماعيلية تستعمل الحجاب. وفي كل مكان شجعت على انشاء المدارس للبنات، حتى في المناطق التي كانت هذه المدارس مجهولة فيها بالكلية، وباستطاعتي القول، بكل فخر، أن اتباعي الاسماعيليين هم، في مضمار الرفاهية الاجتماعية، متقدمون أشواطاً على أفراد أي مذهب إسلامي آخر، ليس من شك في أن من الممكن أن نجد أفراداً حققوا تقدماً مماثلاً، ولكني مقتنع بأن ظروفنا الاجتماعية كمجموع تعليم الفتيان والفتيات معاً، والزواج والعادات المنزلية، والاشراف على الطلاق، وإعالة الاولاد في حالة الطلاق، الخ... متقدمة أشواطاً كبيرة لقد كنا أول من استحدثت القبالة، ودرينا الممرضات على أعمال الولادة قبل انتشارها في الشرق الأوسط بزمان طويل. وبمساعدة جمعية اللايدي دوفرين للممرضات في الهند ومؤازرتها تمكنت -في الوقت الذي كانت فيه الظروف العادية في هذه الأمور غير صحية إلى درجة هائلة- من أن أقدم نظرة حديثة إلى الولادة، مع قابلات مديرات، لا في الهند ويورما وحدهما بل في سوريا والعراق، (كلما سمحت الظروف العامة).

وفي افريقيا حيث استطعت أن أقدم مساعدة فعلية ومشورة أيضاً، ووضعنا مالية الأفراد ومختلف الجاليات على أساس أمين للغاية، لقد أنشأنا شركة للتأمين ازدادت قيمة أسهمها زيادة عظيمة، وكذلك أنشأنا ما دعوناه بشركة توظيف الأموال، وهي في الواقع جمعية تقبض الأموال ثم تقرضها بفائدة متدنية للتجار الاسماعيليين ولمن يودون أن يبتاعوا أو يشيدوا بيوتاً خاصة بهم.

لقد كتبت الكثير مع كثير من السخف عن ثروتي الشخصية، أن في الولايات المتحدة الأمريكية منات من الناس تفوق ثرواتهم ثروتي، والكلام نفسه ينطبق على أوروبا ولعل القليلين من الناس، بالنظر إلى مدى الضرائب المفروضة، حتى في الولايات المتحدة يمارسون أشرفاً على دخل كدخلي، ولكن هذا الاشراف يرافقه - كقانون غير مكتوب - حفظ مختلف المؤسسات الاجتماعية والدينية سوى الجزء اليسير.

عندما أقرأ عن «ملايين الجنيهات سنوياً» التي يفترض أنني أملكها، فأني لا أعرف سوى أنني إذا ملكت هذا القدر الهائل من المال كنت خليقاً بأن أخجل من نفسي، أن في ملاحظة اندرو كارنيجي قدراً كبيراً من الحقيقة: «إن الرجل الذي يموت غنياً يموت محروماً» ويتعين علي أن أضيف إلى هذا: والرجل الذي يعيش غنياً يعيش محروماً، وأنا أعني بقولي «يعيش غنياً» الرجل الذي يعيش وينفق على لهوه ومتعته بمعدل وعلى نطاق من العيش يفوق ذلك النطاق المألوف عند من نسميهم اليوم بطبقة الدخل العليا في البلد الذي هو مواطن فيه.

أنا لست شيوعياً، ولا أؤمن أن مستوى عالياً من الحياة الخصوصية اثم واساءة للمجتمع، أنا لا أشعر بأي خجل لاقتنائي ثلاث سيارات أو أربع، ففي الهند، حيث يأتي ويذهب من الخارج كثير من الناس، لدي دائماً عدد أكبر من السيارات أضعها تحت تصرفهم.

كذلك لا أجد عاراً في كوني صاحب اسطبل كبير لحياد السباق. فعائلتي كانت لها علاقة طويلة شريفة بالفروسية بجميع أشكالها، ولو أنني عمدت أن تحويل الاسطبل إلى بيت تجاري فلست أشك في أنني كنت أجني أرباحاً طائلة في أي يوم من أيام الأسبوع، ولكن لا جدي ولا أبي، ولا أنا نفسي نظرنا إلى السباق كأمر يجلب الريح، ولكن كنوع من الرياضة التي يمكن أن تصبح من طريق الانتباه التام والإدارة الواعية، مصدراً دائماً للمتعة لا لأنفسنا فحسب بوصفنا مالكي الحيات، بل للؤلوف وللملايين في الواقع- الذين يتتبعون ألواننا في حلبة السباق، واعتبرنا اسطبلات تدريبنا مصادر ثروة للبلاد التي أنشأناها فيها وذات فائدة عملية من وجهة نظر حفظ نسل الخيل وتحسينه.

وهناك تهمة التبذير التي الصقت بعائلتنا في الفترة التي كان يعيش فيها نحو من ألفي شخص ويطعمون على حسابنا، ولكن هؤلاء الألفين لم يكونوا إلا من ذرية اولئك الذين هاجروا من إيران مع جدي، وتخلوا عن بيوتهم وأراضيهم وكنا، نحن زعماء الاسماعيلية، مسؤولين عن رفاهيتهم وعائلتهم، ولقد عالجت هذه المسألة بأسرع ما استطعت، وبأكبر قدر من العناية، بحيث

أن ذريتهم اليوم تنعم بسعادة أكبر بما لا يقاس، وتعتمد على نفسها أكثر مما كانت عليه في السابق بما لا يقاس، وليس في ضميري ما يؤنبني على الطريقة التي عالجتها بها.

كان من شأني أن أكون رجلاً شقياً إلى أعمق حدود الشقاء لو أنني ملكت عشر الثروة الخيالية التي يقول الناس أنها تحت تصرفي، ذلك أنني عندئذ لأبد أن أشعر طيلة حياتي بأني أحمل ثقلًا ميثاً - لافائدة ترتجي منه سواء لعائلتي أو لأصدقائي أو لاتباعي، ذلك أن الثروة والمنافع المادية التي تجلبها هذه الثروة تؤذي إذا ما تجاوزت حداً معيناً، بأكثر مما تنفع المجتمعات والأفراد على حد سواء، وفيما يتعلق بطريقة حياتهم فقد حاولت أن أنوع النصيحة التي أسديتها لاتباعي حسب البلد أو الدولة التي يعيشون فيها، ففي مستعمرة شرقي آسيا البريطانية تراني ألح عليهم بقوة بأن يجعلوا من اللغة الانكليزية لغتهم الأولى، وأن يقيموا حياتهم العائلية والبيتية على الطريقة الانكليزية، وأن يتبنوا عموماً العادات البريطانية والأوروبية إلا في ما يختص بالمسكرات وعبودية التبغ، وأنني لمقتنع بأن العيش كما يجب أن يعيشوا في مجتمع متعدد الاجناس، وأن نوع الحياة الاجتماعية ومؤسساتها الذي يعطيهم أعظم الفرص لتنمية شخصياتهم والذي هو من الوجهة العملية أكثرها فائدة هو النوع الذي يجب عليهم أن يتبعوه. ومن ناحية أخرى فقد أسديت لهم النصيحة نفسها إلى اولئك الذين يعيشون في بورما - ولكن عليهم أن يتبعوا طريقة بورما في الحياة لا أية طريقة أخرى. أما في البلدان الاسلامية مثل سورية ومصر والعراق وايران فليس هناك طبعاً أية صعوبة اطلاقاً. ولقد اتبعت عائلتي في حياتها البيتية والاجتماعية الاسلوب الايراني - الاسلامي، وهذا الأسلوب لم يتطلب ايما تعديل جذري في حيثما عشت. حتى أن السيدات الأوروبيات اللواتي تزوجتهن، الواحدة تلو الأخرى، قد اكتسبن بسهولة وسرور مظهرًا ونمطاً حياتيين ايرانيين - اسلاميين.

فقد واجه اتباعي مشكلة حادة، لقد وصلوا إلى أفريقيا حاملين عاداتهم الآسيوية نمطاً آسيوياً في الحياة، ولكنهم لقوا مجتمعاً في طور النمو يمكن أن يوصف بأنه أوروبي افريقي. ولو أنهم احتفظوا بمظهره الآسيوي من حيث اللغة والعادات واللباس، إذن لشكل الأمر مضاعفة بالنسبة إليهم ولاتهموا بالابتدال في أفريقيا المستقبل. أما في باكستان و.بهارات، الحديثة فإنه من المرجح أن يتبع الاسماعيليون في المستقبل نمطين ثقافيين مختلفين. ففي غرب باكستان فإنهم على الأرجح سيتكلمون اللغة الاوردية أو ما كانت تدعى باللغة الهندوستانية، وستصاغ عاداتهم الاجتماعية بناءً على ذلك، وأما في شرق باكستان فإن الرداء واللغة البنغاليين سيلعبان دوراً رئيسياً في حياة الاسماعيليين.

وفي بهارات سيتكلمون الكوجاراتية والماراثية على الأرجح، ومع ذلك فأنا واثق بأنهم ما داموا محافظين على دينهم فإن اخوة الاسلام ستوحد جميع الشعوب ذات المظاهر الاجتماعية وأساليب السلوك المختلفة، وستبقي على تماسكهم الروحي.